

تحقيق

الدكتور مصطفى عبد الواحد

[ينشر لأول مرة على نسخ مكتبة طلعت

الجزء الأول

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م

الطبعة الثانية
١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ - تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٣٦٤٣٩٨ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣
فاكس: ٠٠/١٢١٢/٤٧٨١٣٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله والصلاة والسلام على خير أنبيائه ورسله ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

وبعد ، فهذا كتاب « التبصرة » للإمام أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى أقدمه للأمة الإسلامية ، وهو الكتاب الثالث من كتب ابن الجوزى المتوارية التى لم تطبع من قبل ، وكان لى شرف إخراجها إلى الناس ، وكان أولها « ذم الهوى » الذى طبع منذ عشرة أعوام وثانيها « الوفا بأحوال المصطفى » وكان بعده بأربعة أعوام ، وقد رأيت فى تراث ابن الجوزى ما يستحق العناية والاهتمام ..

ولا بد أن أعرض فى هذا التقديم لأمور ثلاثة : المؤلف ، والموضوع ، والكتاب .

***

ابن الجوزى :

أما المؤلف فهو(١) أبو الفرج عبد الرحمن بن أبى الحسن على بن محمد بن على بن عبد الله بن حَمَّادى ، بن أحمد بن محمد بن جعفر ، الجوزى القرشى التَّيْمى البَكْرى ، البغدادى ، الفقيه الحنبلى ، الواعظ ، الملقب جمال الدين الحافظ .

والجَوْزى : نسبة إلى فَرْضة الجوز – كما يقول ابن خلكان – أو إلى محلة الجَوْز بالبصرة كما يقول ابن العماد .

---

(١) ترجمته فى شذرات الذهب ٤/٣٢٩ ووفيات الأعيان ٢/٣٢١ وتذكرة الحفاظ ٤/١٣٥ ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزى .

ولد سنة عشر أو ثمان وخمسمائة أو قبلها ، كما يقول ابن العماد ، وكذلك يردد ابن خلكان ميلاده بين سنة ثمان وعشر ، ومات سنة سبع وتسعين وخمسمائة .

ونشأ يتيما إذ مات أبوه وله ثلاث سنين فربته عمته .

قال عن نفسه : « فإن أبي مات وأنا لا أعقل ، والأم لم تلتفت إلى[1] »

ولكنه نشأ شغوفا بالمعرفة محبا للطلب ، فسمع الكثير ونظر فى جميع الفنون كما قال : « فركز فى طبعى حب العلم ، وما زال يوقعنى على المهم فالمهم ، ويحملنى إلى من يحملنى على الأصوب ، حتى قوّم أمرى » .

شيوخه :

لما ترعرع ابن الجوزى حملته عمته إلى مسجد أبى الفضل ابن ناصر ، وهو خاله ، فاعتنى به وأسمعه الحديث ، وحفظ القرآن وقرأه على جماعة من القراء بالروايات .

وقد كان لابن الجوزى شيوخ يبلغون سبعة وثمانين ! منهم على بن عبد الواحد الدينورى ، وابن الحصين ، وأبو عبد الله البارع ، وأبو الوقت السجزى ، كما كان معظّما لأبى الوفاء بن عقيل متابعا لأكثر ما يجده من كلامه .

الواعظ المحدِّث :

وقد اتجه ابن الجوزى منذ نشأته إلى الوعظ ، فوعظ من صغره وفاق فيه الأقران ونشأت له فى ذلك ملكة عجيبة وبديهة حاضرة وتاب على يديه الآلاف وحضر مجالسه الخلفاء والوزراء :

قال : « ولقد تاب على يدى فى مجالس الذِّكر أكثر من مائتى ألف ، وأسلم على يدى أكثر من مائتى نفس ، وكم سالت عين متجبر بوعظى ، لم تكن تسيل » .

---

(١) عبارات ابن الجوزى فى الحديث عن نفسه منقولة من كتابه « صيد الخاطر » فى مواضع متفرقة .

وقد كان مجلسه فى بعض الأحيان يقدر بمائة ألف ، وحضر مجلسه الخليفة المستضىء عدة مرات من وراء الستر .

وسيتضح هذا الجانب فى عرضنا لموضوع الكتاب .

كذلك اشتهر ابن الجوزى بمعرفة الحديث ولقب فيه الحافظ وصنف فيه الكثير ، وبلغ من وثوقه بنفسه فيه أن قال :

« ولا يكاد يُذكر لى حديث إلا ويمكننى أن أقول : صحيح أو حسن أو محال » .

وليس هذا غرورا ولا ادعاء ، ولكنه قول من يعرف قدر نفسه ويحيط بموهبته ، ولقد أخلص ابن الجوزى لعلم الحديث وبذل فى سبيل بلوغ المرتبة العالية فيه الكثير .

ومن ذلك ما يذكره عن نفسه : « كنت فى زمان الصبا آخذ معى أرغفة يابسة فأخرج فى طلب الحديث وأقعد على نهر عيسى فلا أقدر على أكلها إلا عند المساء ، فكلما أكلت لقمة شربت عليها ، وعينُ هِمّتى لا ترى إلا لذة تحصيل العلم ، فأثّر ذلك عندى أنى عُرفت بكثرة سماعى لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحواله وآدابه وأحوال الصحابة وتابعيهم ، فصرت فى معرفة طريقه كابنِ [بل] أجود » .

وقد ذكر ابن خلكان أنه جُمعت بُراية أقلامه التى كتب بها حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فحصل منها شىء كثير ، وأوصى أن يسخن بها الماء الذى يغسل به بعد موته ففعل ذلك ، فكَفَتْ وفضل منها .

عالِم واسع :

ولم تكن شهرة ابن الجوزى فى الوعظ والحديث لتمنعه من التبحر فى غيرها والمشاركة فى ألوان الثقافة الأخرى فبرع فى علوم مختلفة وحاز مكانة فى أكثر من ميدان ، وطلب من كل فن ما أطاق .

قال : « إنى رجل حُبّب إلىّ العلم من زمن الطفولة فتشاغلت به ، ثم لم يحبّب إلىّ

فن واحـــد منه ، بل فنونه كلها ، ثم لا تقتصر همتى فى فن على بعضه ، بل أروم استقصاءه » .

وقـد جنى من تحصيله الـكثير ثمرة فائقة جعلت له منزلة عالية فى جوانب الثقافـة الإسلامية وأحلّته مكانا مرموقا مما جعله يقول فى آخر عمره : « وما نِلْته من معرفة العلم لا يقاوَم » .

وهو فى ذلك يمثل شمول الثقافة العربية وسعة آفاقها .

فهو إلى جانب تبحره فى علوم القرآن والسنة واشتهاره فى ميدان الوعظ يشارك فى علم التاريخ وكتبه فيه لا تقل درجة عن المصادر الموثوق بها، وأشهرها كتابه « المنتظم فى تاريخ الأمم » كما يثبت أصالته فى علوم اللغة بكتب متعددة منها : تذكرة الأريب فى اللغة ، والوجوه والنظائر ، وتقويم اللسان ، والمقيم المقعد فى دقائق العربية . وما كان لواعظ محدث أن يتسع اهتمامه باللغة إلى هذا الحد الذى يجعله يؤلف فيها ، ولـكن ابن الجوزى كان كغيره من الأئمة الأقدمين ، يؤمن بوحدة الثقافة الإسلامية ويرى أن بعضها يخدم البعض وأن الاقتصار منها على جانب ضِيق فى الأفق وقصور عن المعرفة .

بل إنه نظر فى الطب والفراسة والتجارب وله فى ذلك آثار . إلى جانب أنه كانت له حاسة أدبية مرهفة تظهر فى أسلوبه الذى يتميز بالقدرة على اختيار الألفاظ فى مواطنها وبالتلوين فى الصور والمهارة فى الاقتباس ، كما يتجلى ذلك فى كتابه الذى نعرضه اليوم .

كما كان ابن الجوزى ينظم الشعر فى مناسبات مختلفة ، وقد ذكر له ابن خلـكان بعض المختارات ، منها قوله يخاطب أهل بغداد :

عذيرىَ من فتية بالعراق ... قـــلوبهم بالجفا قُلَّبُ
يرون العجيبَ كلام الغريب ... وقولُ القريب فـــلا يُعجبُ
مَيازيبهم إن تندَّت بخـــيرٍ ... إلى غـــير جيرانهم تقلبُ
وعـــذرهمُ عند توبيخهم ... مغنيـــة الحىّ لا تُطربُ

وهكذا كان الرجل عالما أديبا وفقيها محدثا وواعظا مفكرا ، وقف موقف النقد من عصره وفكره .

موقفه من عصره ومجتمعه :

كان لابن الجوزى موقف متميز فى صلته بعصره ومجتمعه . فلم يكن من وعاظ السلاطين أو حاشية الملوك الذين تستكمل بهم الزينة أو يملأون حيزا يحدد لهم فلا يتجاوزونه.

بل كان الرجل ذا شخصية فذة ، عرف مكانه من بيئته وعصره ، فانطلق يجاهد بسلاحه الذى يملك ، وهو البيان والتعليم ، وتجافى عن ظل السلطان ونجا من المداهنة فى قوله أو الرياء بعلمه ، فاستطاع أن يستعلن بكلمة الحق وأن يعرف الإصرار فى الرأى والقوة فى الحجة والإقناع .

وتلمح خطته فى الإصلاح ومنهجه فى الثورة على المفاسد والانحرافات فى كتابه « تلبيس إبليس » الذى حدد فيه موقفه من الفكر والسلوك فى عصره .

وفى هذا الكتاب يخص ابن الجوزى شذوذ أدعياء التصوف ومخالفاتهم للشريعة بجانب كبير ، وقد اشتهر بعدائه للبدع وإنكاره لكل ما يخرج عن الهدى الإسلامى الصحيح . .

وهو بهذا سُنّى سلفى ، لا يرتبط بمذهب يحمله التعصب على نصرته ، ولا يأوى إلى رأى يذود عنه أو يقنع به ، بل هو مجتهد فى فهم الكتاب والسنة متقبِّل لما ساير العقل من الأثر ، ولهذا لم يبال أن يخالف أحدا ممن سبقوه ما دام ضياء العقل وبهاء النقل فى يده !

ولذلك تراه يردُّ على الإمام الغزالى كل ما لا يتسق مع المنهج الفقهى الذى ارتضاه الغزالى نفسه ، إذ كان الغزالى المتصوف يناقض فى بعض الأحيان الغزالىَّ الفقيه ! فكان ابن الجوزى يعجب من ذلك ويلفت إليه .

وقد كان ابن الجوزى حنبلىَّ المذهب ، إلا أنك لا تحس منه وقوفا عند رأى ، بل

إن سناء عقله جعله يقف من التراث الإسلامى كله مُشْرفا يتطلع إلى الحق أينما كان . .

ولهذا لم يرتض الحنابلة أنفسهم كثيرا من آراء ابن الجوزى ، بل إنهم نقموا عليه بعضها .

يقول عنه ابن رجب الحنبلى فى كتابه « طبقات الحنابلة » : « نقم عليه جماعة من مشايخ أصحابنا ميله إلى التأويل فى بعض كلامه ، واشتد نكيرهم عليه فى ذلك ، ولا ريب أن كلامه فى ذلك مضطرب مختلف ، وهو وإن كان مطّلعا على الأحاديث والآثار فلم يكن يحلُّ شُبَه المتكلمين وبيان فسادها » . ثم علل اضطرابه بأنه : « كان معظِّما لأبى الوفاء ابن عقيل متابعا لأكثر ما يجده من كلامه ، وإن كان قد ردَّ عليه فى بعض المسائل ، وكان ابن عقيل بارعاً فى الكلام ولم يكن تام الخبرة بالحديث والآثار فلهذا يضطرب فى هذا الباب وتتلون فيه آراؤه ، وأبو الفرج تابع له فى هذا التلوّن » .

ويقول عنه الشيخ موفق الدين المقدسى : « كان ابن الجوزى حافظا للحديث وصنف فيه ، إلا أننا لم نرض تصانيفه فى السُّنة ولا طريقته فيها » .

والحق أن تعظيم ابن الجوزى لأبى الوفاء ابن عقيل ليس تعصبا ولا جمودا ولا تعبّدا بفكر ، إذ أن ابن عقيل حسب نقوله التى يرويها عنه ابن الجوزى فى كتبه المختلفة : رجل طليق الفكر ناضج الرأى مشرق الفهم بصير فى اتجاهه ، فلعل إعجاب ابن الجوزى به إعجاب المشارب المتفقة والأذواق المتلائمة ، خاصة حين نذكر أن ابن الجوزى لم يلتق بابن عقيل ولم يتصل به ، فقد توفى ابن عقيل قبل أن يولد ابن الجوزى ، وكان ابن عقيل من رجال القرن الخامس الهجرى ، وكل ماهنالك أن ابن الجوزى التقى به بفكره وتلمّح فى آثاره سعة الأفق واستنارة البصيرة وحرارة الإخلاص .

ولم يكن بدٌّ أن يتعرض ابن الجوزى ـ فى صراحته وجهره بالحق ـ لعداوات كثيرة فكرية وسياسية ومذهبية ، جلبت عليه الكثير من الأذى والحرج ، وقد كانت الخصومات المذهبية تشتد حتى يصيبه لَفْحها ، وحتى تدبَّر له المكائد بسبب إعلانه لما يراه حقا دون خشية أو مواربة .

يروى الذهبي فى «تذكرة الحفاظ» أنه « قام عليه الركن عبد السلام بن عبدالوهاب الحنبلى تجاه الوزير ابن القصاب ، وكان الركن سيئ النِّحْلة أُحرقت كتبه بإشارة ابن الجوزى، وأعطى مدرسة الحنبلى ، فحمل الركنُ عليه وقال لابن القصاب الشيعى : أين أنت من ابن الجوزى ؟! فإنه ناصِبىٌّ ـ أى يبغض عليًّا رضى الله عنه ـ ومن أولاد أبى بكر .

فجاءه مَن شتمه وأهانه وختم على داره وشتت عياله ، ثم أُخـذ فى سفينة إلى واسط ، فحبس بها فى بيت وبقى يغسل ثوبه ويطبخ ، ودام على ذلك خمس سنين ومادخل فيها حمَّاما ! » .

وتلك مظالم العصبية والطائفية التى عانت منها الأمة الإسلامية الرزايا العِظام !

أما الخصومات العلمية فقد كان بعضها يصل إلى درجة الطعن عليه ، مثل وصف ابن الأثير له فى مقدمه كتابه « اللباب » بالتدليس ، فى صدد دفاعه عن السمعانى . وكان بعضها هينا من باب النقد الخفيف ، من أنه كان يقع السهو فى تصانيفه وأنه كان يتمّ الـكتابَ فلا يراجعه ، وأن معظم ما كتبه ليس من ممارسة العلماء .

كتبه :

كان ابن الجوزى من المكْثرين فى الـكتابة الموفقين فى التأليف والتصنيف حتى شاعت له شهرة فى ذلك وأحاطت المبالغة بعدد كتبه .

فهذا ابن العماد الحنبلى يذكر أن ابن الجوزى سئل عن عدد تصانيفه فقال : « زيادة على ثلاثمائة وأربعين مصنفاً ، منها ما هو عشرون مجلدا وأقل » .

ويقول عنه الذهبي : « ما علمت أن أحدا من العلماء صنّف ما صنّف هذا الرجل» .

ويقول ابن خلـكان : « وبالجملة فـكتبه أكثر من أن تُعد ، وكتب بخطه شيئا كثيرا ، والناسُ يغالون فى ذلك » .

وقد كان الرجل عميق الثقافة متسع المدارك خاليا من الشواغل والآفات ، فأكثر

من الـكتابة والتصنيف ، ولـكن هـذا العدد الذى يُذكر لـكتبه محوط بالتهويل والمبالغة ، ولعلهم كانوا يعدون الأجزاء من الـكتاب الواحد كتبا متعددة .

والذى يُذكر من كتبه فى التراجم التى كتبت له لا يكاد يبلغ المائة ، والمؤسف أن القدر الذى بقى من كتبه لايزال أكثره فى طوايا النسيان يحتاج إلى من يُعنى به ويصونه من الضياع ، وهو بحاجة إلى جامعة إسلامية أو هيئة علمية تنفض عنه غبار الدهر وتدفع عنه يد البلى ، وإن الأزهر الشريف لأولى بذلك وأحق . .

إن ابن الجوزى يجد من يهتم بكتبه وآثاره من المستشرقين، وكثير من كتبه المخطوطة فى موضع العناية فى المـكتبات والجامعات الأوربية وحين أخرجت كتابه « ذم الهوى » لم أجد فى مكتباتنا العربية نسخة منه يعوّل عليها ، على حين وجدت النسخة الأصلية التى قرئت على ابن الجوزى فى مكتبة جامعة توبنجن بألمانيا الغربية وأخرى صحيحة كتبت بعده بقرن فى مكتبة باريس الأهلية !

وإننى لأكرر الدعوة هنا إلى أن تصان آثار ابن الجوزى وتتبع كتبه المفقودة أو النائية عنا وتستردّ عن طريق نشرها من أيدى الأوربيين الذين عنوا بتراثنا وحازوا أصوله على حين غفلة منا واستهانة .

ولا بأس أن نذكر هنا بعض ما عرف من كتب ابن الجوزى فى الفنون المختلفة ونشير إلى المطبوع منها .

ا ـ فى علوم القرآن وتفسيره :

١ ـ المغنى فى علوم القرآن .
٢ ـ فنون الأفنان فى عجائب علوم القرآن
٣ ـ زاد المسير فى علم التفسير
٤ ـ المجتبى فى علوم تتعلق بالقرآن

٥ ـ التفسير الكبير فى عشرين مجلدا
٦ ـ إخبار أهل الرسوخ بمقدار الناسخ والمنسوخ [طبع سنة ١٣٢٢ هـ]

ب ـ علوم الحديث :

١ ـ الكشف فى أحاديث الصحيحين
٢ ـ تهذيب المسند . عشرون مجلدا
٣ ـ المختار من أخبار المختار
٤ ـ مشكل الصحاح ـ أربعة مجلدات
٥ ـ جامع المسانيد ـ سبع مجلدات
٦ ـ الموضوعات [طبع بالهند]
٧ ـ الواهيات
٨ ـ الضعفاء
٩ ـ تلقيح فهوم أهل الأثر [طبع بالهند]

ج ـ الوعظ :

١ ـ بستان الواعظين
٢ ـ نتيجة الإحياء . اختصر به إحياء علوم الدين للغزالى
٣ ـ تبصرة الأخيار
٤ ـ روح الأرواح [طبع]
٥ ـ الثبات عند الممات
٦ ـ المورِد العذب
٧ ـ لفتة الكبد إلى نصيحة الولد [طبع]
٨ ـ القصّاص والمذكرون

٩ ـ منهاج المريدين

١٠ ـ التبصرة [وهو الذى نقدمه اليوم]

١١ ـ المدهش [طبع]

١٢ ـ رءوس القوارير فى الخطب والمحاضرات والوعظ والتذكير . [طبع]

١٣ ـ تنبيه النائم الغمر على حفظ مواسم العمر

١٤ ـ الياقوتة فى الوعظ

د ـ التاريخ والتراجم :

١ ـ المنتظم [طبع]

٢ ـ مختصر المنتظم

٣ ـ مناقب عمر بن عبد العزيز [طبع]

٤ ـ شذور العقود فى تاريخ العهود

٥ ـ صفة الصفوة [طبع]

٦ ـ مناقب أحمد بن حنبل .

٧ ـ الذهب المسبوك فى سير الملوك

٨ ـ فضائل القدس .

١٠ ـ أخبار النساء

١١ ـ مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن

١٢ ـ مناقب عمر بن الخطاب [طبع]

١٣ ـ الوفا بأحوال المصطفى [طبع]

هـ — علم الكلام :

١ ـ التحقيق فى مسائل الخلاف

٢ ـ الإنصاف فى مسائل الخلاف

٣ ـ دفع شبهة التشبيه والرد على المجسمة [طبع]

٤ ـ تجريد التوحيد المفيد

و ـ اللغة والأدب :

١ ـ تقويم اللسان

٢ ـ المقيم المقعد فى دقائق العربية

٢ ـ تذكرة الأريب

٤ ـ الوجوه والنظائر فى اللغة

٥ ـ الأذكياء [طبع]

٦ ـ الحمقى والمغفلون

٧ ـ ذم الهوى [طبع]

٨ ـ المقامات

٩ ـ لقط المنافع فى الطب والفراسة عند العرب

ز ـ النقد الدينى والاجتماعى :

١ ـ صيد الخاطر [طبع]

٢ ـ تلبيس إبليس [طبع]

وهذا التراث الوفير قليل من كثير مما كتب ابن الجوزى ، وكم له من كتب شتى

منثورة فى المكتبات القاصية ، مما يجل حقا علينا أن نصون هذا التراث حتى لا تحرم أمتنا من كنوز علمائها وهداتها ، وحتى لا يحتجب عنا هذا الضياء أشد ما نكون حاجة إلى سناه وهداه .

هـــــذا الكتاب

والكتاب الذى نقدمه اليوم لابن الجوزى هو أجمع ما ترك ابن الجوزى فى علم الوعظ الذى اشتهر به وغلب عليه . فقد كان ابن الجوزى ـ كما قدمنا ـ صاحب مَلَكة فى الوعظ جعلته يؤثر فى الناس ويجمع حوله القلوب. وقد صاحبته هذه النزعة منذ نشأته .

وقد أراد ابن الجوزى أن يسجل ملامح هذه الموهبة فى كتاب التبصرة الذى أراد منه أن يكون كتابا فى « علم الوعظ » يغنى عن النظر فيما صنعه بعض الأعاجم من كتب فى هذا الموضوع ، كما يذكر ابن الجوزى فى مقدمة كتابه[1] .

ومن هنا أراد ابن الجوزى أن يجعل من كتابه مرجعا فى هذا العلم يُغْنى عن النظر فيما سواه فتوسع فيه ما شاء وتفنن ، وجمع فيه بين مواد من الثقافة الإسلامية ونظَمها فى سياق لا اضطراب فيه ولا اختلاف .

وقد قسم ابن الجوزى كتابه إلى تسع طبقات تجمع أبوابا كثيرة من جوانب العقيدة والتشريع والأخلاق والقصص والسير ، وكلها تحوى مائة مجلس، معظم صدورها تقوم على خبر أو رواية وأعجازها تقوم على آيات مختارات مما يرقق القلوب ويهذب النفوس والأخلاق .

ولا يذكر لنا ابن الجوزى فى مقدمته شيئا عن كتب الوعظ التى ألفت من قبل ، وأظن أنه ما سبق ابن الجوزى أحدٌ فى هذا الباب إلا الإمام أبو حامد الغزالى فى كتبه المعروفة ، إلا أنه لم ينح بها منحى الصنعة والتفنن فى علم بعينه ، ولكنه جعلها كتب حقائق ومعارف .

---

(١) ص ١ من هذا الكتاب .

أما ابن الجوزى فإن كتابه هذا يمثل تطور صناعة الوعظ كفن مستقل له خصائصه الأسلوبية وملامحه البديعية التى أثرت فيه وميزته إلى عهد قريب .

إلا أن كتاب التبصرة لا يمكن اعتباره كتابا خالصا فى الوعظ ، رغم ما يجمعه من فنونه المتنوعة ، ففيه كما أشرت مواد من الثقافة العربية تجعل له قيمة علمية إلى جانب غايته الخلقية :

ا ـ ففيه مادة واسعة من التفسير ، تستعرض الأقوال وتحشد الروايات وتفصل الآراء ، إذ أن ابن الجوزى فى آياته المختارة وفى شرحه لما يبنى عليه مجالسه ، يعنى بإيراد أقوال المفسرين على نحو مفصل ، ويذكر لكل قول ما يؤيده من رواية ، مما نرى فيه نموذجا للتفسير بالنقل والأثر .

ب ـ وفيه مادة لغوية أصيلة ينقلها ابن الجوزى عن أئمة اللغة والنحو كسيبويه والزجاج والفراء وابن الأنبارى وأبو عبيدة ، كاستشهاده على أن أصل ملَك[1] مَلْأك . وكتفسيره اللغوى لقوله تعالى : « وضاق بهم ذرعا[2] » وتفسيره للرحيق المختوم[3] ، وكتخريجه لقراءات : « وحور عين[4] » وغير ذلك مما يشيع فى الكتاب من وجوه وقراءات .

جـ ـ وفيه مادة أدبية ، هى أوسع ما تضمنه الكتاب ، وهى ذلك الشعر الذى جعله ابن الجوزى وسيلته فى التأثير والإيحاء .

وهذا الشعر هو أهم مادة قدمها إلينا الكتاب ، من حيث إنه حفظ لنا تراثا أدبيا إسلاميا لم يعن به أصحاب المجموعات والمختارات الأدبية ، هو شعر الزهد والرقائق والتأمل والاعتبار ، وبعض هذا الشعر معروف النسبة ، وهو قليل ، وقد نسبته إلى أصحابه كأمية ابن أبى الصلت وسابق البربرى وأبو العتاهية وابن مناذر ، وكثير منه لا يعرف قائله ، ولم يرد فى المصادر الأدبية المتداولة .

---

(١) ص ١٢ . (٢) ص ١٥١ . (٣) ص ٢٣١ . (٤) ص ٢٤٥ .

ومما يزيد فى قيمة هذا الشعر الوارد فى كتاب التبصرة ، أنه ليس نظما سخيفا ولا تكلفا متمحّلا ، وإنما هو ـ فى أغلبه ـ شعر يجمع مقاييس الجودة فى شكله ومضمونه ويصدر عن عاطفة صادقة ونظرة حكيمة ، مما يبطل الوهم الذى كان يسود بين النقاد الأقدمين من أن أَعْذَبَ الشِّعرِ أَكْذَبُه ! وأن الشعر نَكِدٌ يَضْعف فى الخير ويَقْوى فى الشر !

والحق أن ابن الجوزى قد أَسْدَى إلى الأدب الإسلامى صنيعة لا تنكر حين جمع فى كتابه هذا الحشد الضخم من المختارات الشعرية التى تصور كيف تمثَّل الأدب العربى معانى الإسلام وكيف عبر عن الحقائق التى آمن بها الوجدان العربى، ولو أن ابن الجوزى عُنى بنسبة هذا الشعر إلى قائليه لتمت الفائدة ولاستطعنا أن نصدر حكمنا فى مواقف العصور الأدبية من قضية الأدب الإسلامى على نحو دقيق .

ويَقْوى فى ظنى أن ابن الجوزى قد أورد فى هذا الكتاب شيئا من أشعاره هو ، إذ كان ابن الجوزى ينظم الشعر ، كما ذكر ذلك ابن العماد وابن خلكان ، وما كان ليقصر عن النظم فى هذا الموضوع الذى ملَك عليه اهتمامه وجرى مع طبيعته .

ويمتاز ابن الجوزى فى استشهاده بالشعر بحاسة مرهفة تجعله يضع كل شاهد فى موضعه الذى يؤثر فيه غاية التأثير ، وذلك دليل على القدرة على الرواية والتذوق الأدبى الصحيح .

د — ويبقى بعد ذلك مادة الوعظ فى الكتاب ، وهى تلك المقالات الإنشائية المسجوعة فى الغالب ، التى ضمنها ابن الجوزى معانيه فى الحث على الزهادة والتذكير بالآخرة والتحذير من الذنوب ، وهى أغلب المعانى التى ترد فى هذه المقالات .

واختيار ابن الجوزى للسجع فى هذا الجانب دليل على ما كان للسجع من تأثير على الأسماع ، وقد أتى ابن الجوزى بسجعه طبيعيا غير مستكره ، مما يدل على تفننه فى

التعبير وامتلاكه لزمام أسلوبه . كما عنى ابن الجوزى فى هذه المقالات بالصور البيانية من استعارة وتشبيه وكناية ، قصدا إلى التأثير أو الإيضاح .

ولئن كان ذوقنا الأدبى فى العصر الحديث لا يرضى عن السجع ولا يؤثره فى التعبير ، إلا أنه لا يمكن تطبيق هذا المقياس على عصر ابن الجوزى الذى كان يرى فى السجع قدرة أسلوبية وخاصة فى مواطن التأثير والتحذير .

وابن الجوزى قد عرف فى أسلوبه كلا اللونين : المرسل والمسجوع ، ويمثل أسلوبه المرسل كتابه : صيد الخاطر الذى جعله تأملات طليقة فى جوانب الدين والفكر والحياة . فلم يكن يلتزم السجع فى كتبه ولكنه رأى ذلك اللون البديعى مناسبا للمجال الوعظ الذى يتطلب التفنن فى التأثير والإيحاء ، ونحن نعلم أن السجع ليس معيبا لذاته ، وإنما يعاب حين يستكره الأسلوب عليه وتضطرب المعانى من أجل الإتيان به ، أما حين يأتى مطاوعاً للفكرة موائما للسياق فهو محمود مرغوب .

***

وهكذا نرى فى كتاب التبصرة مجموعة من ألوان الثقافة الإسلامية والعربية الأصيلة إلى جانب لونه الأدبى الطريف ، وذلك ما جعلنى أرى فى نشره فائدة محققة إلى ما فيه من صَوْن لتراث ابن الجوزى وإحياء آثاره .

وقد التزم فيه ابن الجوزى الصحة فيما يذكره من روايات وأخبار ، إلا فى جانب قليل ، كحديث موضوع أشرت إلى وضعه نقلا عن ابن الجوزى نفسه ! وكأخبار وهب ابن منبه الواهية التى يتحدث فيها عن القدماء بغير حجة ولا أثَر ، وقد أشرت إلى ذلك فى مواطنه .

منهج التحقيق :

اعتمدت فى إخراج هذا الـكتاب على أربع نسخ خطية :

١ ــ نسخة مكتبة طلعت ١٤٤٩ تصوف وقد كتبت فى القرن السابع الهجرى إلا أن بها خروما فى مواضع متفرقة . ورمزت إليها بحرف (ا)

٢ ــ نسخة مكتبة طلعت ١٤٤٨ تصوف وهى كاملة وبها زيادات عن النسخة السابقة وقد رمزت لها بحرف (ب) ويبدو أنها مكتوبة فى نحو القرن التاسع الهجرى .

٣ ــ نسخة دار الـكتب ٢٦٠١ تصوف وأظنها منقولة عن النسخة السابقة إذ أن أخطاءهما واحدة . ورمزت لها بحرف (ج) .

٤ ــ نسخة مكتبة طلعت رقم ١٤٩٢ تصوف وهى مختصر لـكتاب التبصرة اسمه : تذكرة الأيقاظ من تبصرة الوعاظ ، اختصره محمد بن ملا الحنفى فى القرن الثامن الهجرى.

وهذا المختصر دقيق جدا فى كتابته وتصحيحه ، وقد كنت أعتمد عليه فى تصويب أخطاء نسخ ب ، ج فى المواطن المفقودة من نسخة ا التى تعتبر النسخة الأم ، لولا أنها غير كاملة .

وقد أثبت أهم الفروق بين هذه النسخ ، وضبطت ما يحتاج إلى الضبط ، وعرفت ببعض الأعلام ، وخرجت كثيرا من أحاديث الصحيحين ، ونسبت ما أمكننى الاهتداء إليه من الشعر إلى أصحابه ، وشرحت الألفاظ اللغوية التى تحتاج إلى الشرح ، وراعيت فى ذلك كله الاختصار والاقتصار على المهم ، إذ أن الـكتاب طويل يبلغ فى أصله ثلاثة أجزاء كبيرة ؛ فلم أر أن أزحم هذا الأصل الطويل بما يزيده طولا أو يخرج به عن مقصوده .

وقد وقعت فى هذا الجزء أخطاء يسيرة أشرت إلى أهمها ، وسوف أثبت ما يظهر لى بعد ذلك منها فى الجزء الثانى من الكتاب .

وحسبي فى هذا العمل ما فيه من نية صالحة وجهد مبذول ، وأن يكون فيه مشاركة فى حفظ تراث الإسلام وإبلاغ رسالته ، ولله الحمد فى الأولى والآخرة ومنه وحده المعونة والتوفيق ؟

د . مصطفى عبد الواحد
بمجمع اللغة العربية ــ القاهرة

ربيع الثانى سنة ١٣٩٠ هـ
يونية سنة ١٩٧٠ م